

## مقاصد الشريعة الإسلامية عند الإمام ابن باديس

أ. السعيد رحمانى

### مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد هذه محاولة متواضعة ، أقدم من خلالها دراسة لجانب هام من جوانب فكر العلامة عبد الحميد ابن باديس، هو اهتمامه بمقاصد الشريعة الإسلامية في تفكيره وتفسيره ودروسه، مستعينا في ذلك ببعض ما تيسر جمعه من المصادر والمراجع، معتبرا هذا الجهد محاولة علمية لإثراء الساحة العلمية التي تهتم بفكر وتراث علماء الجزائر الأعلام وعلى رأسهم العلامة عبد الحميد بن باديس، أملا أن ينال قبول القراء والباحثين وأن يسهم في إبراز جانب هام من جوانب فكره الذي لم ينل حظه من العناية والبحث وأن يؤدي بعض حقوق الرجل علينا

وقد رتبت البحث على النحو التالي : المدخل وفيه أشرت بإيجاز إلى شخصية الإمام ومكانته المرموقة في صف الباحثين والعلماء الكبار المصلحين ثم بينت اهتمام ابن باديس بالمقاصد الشرعية وأصول استنباطه للأحكام الشرعية وبعد ذلك تعرضت للمنهج النقدي كطريق للاجتihad واستنباط الأحكام والعودة إلى الأصول وبناء الاجتهاد عليها ووجوب مراعاتها في مختلف الدراسات الفقهية ومحاولة إعادة الاعتبار لهذه الأصول وربطها بالمقاصد الشرعية كطريق للخروج من الحالة التي آل إليها الفقه الإسلامي. والله الموفق لما فيه الخير والصالح.

## مدخل

عبد الحميد بن باديس علم من أعلام الإصلاح في العصر الحديث وأحد أبرز المفكرين الجزائريين في القرن الماضي وأحد واضعي الأسس النظرية لحركة الإصلاح الجزائرية، "فهو فقيه أصولي مجتهد، جامع لشروط الإمامة والفتوى، عالم بمذاهب أهل السنة والجماعة، عارف بمقتضيات الحياة، متضلع في المذهب المالكي وفي معرفة أحوال مجتمعه إذ لم يكن فقيها تقليديا يكتفي بالتعامل مع ظاهر النصوص، إنما كان يعمل فكره ويجتهد في تحليل القضايا التي تعرض لحياة الناس وفق الظروف التي يعيشونها"<sup>1</sup>.

ولد الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس في مدينة قسنطينة، إحدى أهم وأقدم مدن الجزائر وعاصمة الشرق الجزائري ومدينة العلم والتاريخ وعاصمة الإصلاح الديني والثقافي في القرن الماضي، يوم 1889/12/04م ونشأ وترى في ربوع هذه المدينة العامرة وتلقى تعليمه بها ثم انتقل إلى الزيتونة أين أكمل دراسته وتحصيله العلمي في جامع الزيتونة العامر والمرموق.

عاد إلى الجزائر وبها أنشأ جمعية العلماء المسلمين سنة 1931م وجمع فيها خيرة أبناء الجزائر وصفوة علمائها، وتعاهدوا على خدمة الجزائر أعظم خدمة من خلال خدمة العربية والإسلام وتعليم الدين وتحفيظ القرآن ونشر العربية والمعرفة في القرى والأرياف والمدن، فكان ذلك أعظم عمل قدمه هذا المصلح الفذ للجزائر ونقلها إلى صف الأمم المتعلمة المتمسكة بذاتيتها وأصالتها وقيمها، وجعل المشرق يسمع بها ويلتفت إلى مكانتها.

جاهد من أجل دعوته الإصلاحية بكل الوسائل الممكنة والمتاحة آنذاك من صحافة ومجلات وخطابة وتدریس في المساجد والمناسبات الوطنية والإسلامية؛ وكان في دعوته يسير وفق مقاصد الشرع الحنيف،

1. د. عبد القادر فضيل وأ. محمد الصالح رمضان : إمام الجزائر، ص 149.

إلا أنه لم يفرد مقاصد الشريعة بمؤلف مستقل و لم يشر إليها في إملاءاته المختصرة في علم الأصول و ذلك ربما راجع إلى كونه كان يركز في عمله الإصلاحي على الجانب العملي التكويني أكثر منه على الجانب النظيري الفلسفي ، كما كان يفعل الطاهر بن عاشور الذي ينظر لإصلاح مناهج العلوم الإسلامية بمختلف فروعها ويبحث عن طريقة لوضع قواعد المقاصد.

ولكن من غير المنطقي ومن غير المعقول أن يكون البعد المقاصدي غائبا في فكر ابن باديس الإصلاحي ولا عن فلسفته التربوية إذ لا يعقل كما يقول الباحث مسعود فلوسي: "أن يغيب على رجل مثل ابن باديس إدراك أمهات المقاصد الشرعية بل حتى مقاصد تفاصيل وجزئيات الأحكام الشرعية. إن مجرد الشك في ذلك يعتبر نوعا من الخط بقدر الرجل وعمق فكره وأصالته"<sup>1</sup>.

#### اهتمام ابن باديس بالمقاصد :

يرى الأستاذ الباحث مسعود فلوسي أن ابن باديس كان دائما يؤكد على مكانة المقاصد الشرعية وبيان أهميتها، وضرورة الحفاظ عليها وصيانتها وذلك من خلال مقالاته التي كتبها بمختلف الجرائد والمجالات التي كانت تصدرها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي يرأسها وفي خطبه ودروسه في التفسير والحديث - التي كان يقدمها في مختلف المناسبات في المساجد والمؤتمرات والنوادي التي كانت تديرها الجمعية .

لقد أدرك ابن باديس كغيره من أكابر علماء الأمة أن الشريعة الإسلامية مبنية في أحكامها على مقاصد تدور في عمومها على جلب المصالح للعباد ودرء المفاسد والمضار عنهم ، فلنتأمل قوله هذا فإنه يؤكد بصريح العبارة اهتمامه الشديد بمقاصد الشريعة الإسلامية : "صلاح النفس هو صلاح

1. د. فلوسي مسعود، "البعد المقاصدي في تفسير ابن باديس"، مجلة الموافقات، العدد 6 589.



الفرد، وصلاح الفرد هو إصلاح المجموع ، والعناية الشرعية متوجهة كلها إلى إصلاح النفوس إما مباشرة أو بواسطة شيء وما شرعه الله تعالى لعباده من الحق والخير والعدل والإحسان إلا وهو راجع عليها بالصلاح وما من شيء نهي الله عنه من الباطل والشر والظلم والسوء إلا وهو راجع عليها بالفساد. فتكميل النفس هو أعظم المقصود من إنزال الكتب وإرسال الرسل و شرع الشرائع<sup>1</sup>.

فهذا النص يكشف لنا بوضوح مدى اهتمام وعناية الإمام ابن باديس بمقاصد الشريعة الإسلامية. فما هو الطريق الذي سلكه لبيان هذه المقاصد؟

### المنهج النقدي كطريق للاجتهد واستنباط الأحكام :

أما فيما يتصل باستنباط أحكام الدين والقدرة على الاجتهاد والتنظير، فإننا نجد لابن باديس منهجا نقديا جديرا بالاعتبار، فقد أمعن النظر في الطرق المتبعة لتدريس مادة الفقه الإسلامي وفي الوسائل الشائعة لتطبيق الأحكام الإسلامية في الحياة العامة، فوجد فيها انحرافا منشؤه الاعتماد بشكل أساسي على الفروع المقطوعة عن أصولها، والإعراض عن الاستدلال والتعليل والقياس والنظر، مما اعتبره ابن باديس هجرا لكتاب الله وبعدا عنه ، وهو ما يشير إليه عند تفسيره للآية ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾<sup>2</sup> فيقول : "وبين القرآن أصول الأحكام ، وأمّهات مسائل الحلال والحرام، ووجوه النظر والاعتبار مع بيان حكم الأحكام وفوائدها في الصالح الخاص والعام، فهجرناه، واقتصرنا على قراءة الفروع الفقهية مجردة بلا نظر، جافة بلا حكمة، محجبة وراء أسوار من الألفاظ المختصرة تفني الأعمار قبل الوصول إليها<sup>3</sup>.

1. ابن باديس، "كتاب التفسير"، ص 96 - 2. سورة الفرقان، الآية 30، ابن باديس، "التفسير"، ص 97. 3. ابن باديس، المرجع نفسه ص 282، ود. عمار الطالبي، "ابن باديس: حياته وآثاره"، ج 1 ص 108.

ويضرب ابن باديس مثلاً بجامع الزيتونة الذي تخرج منه ، فيقول - واصفاً ذلك التخلف الفقهي الذي آلت إليه العلوم الإسلامية والفقهاء الإسلامي على وجه الخصوص - : "فقد حصلنا على الشهادة العالمية من جامع الزيتونة ، ونحن لم ندرس آية واحدة من كتاب الله ، ولم يكن عندنا شوق أو أدنى رغبة في ذلك ومن أين يكون لنا هذا ونحن لم نسمع من شيوخنا يوماً مثله القرآن من تعلم الدين والتفقه فيه ، ولا مثله السنة النبوية من ذلك ، هذا في جامع الزيتونة ! فدع عنك الحديث عن غيره مما هو دونه بعديد المراحل"<sup>1</sup> ومن ثم وجه اهتمامه إلى إيجاد سبيل لإخراج العلوم الإسلامية من هذه الحالة.

### الإعراض عن ربط الفروع بأصولها داء قديم في الأمة :

يعترف ابن باديس بأن حالة العلم هذه التي انتهت إليها عصرنا من هجر القرآن والسنة المطهرة ، والإعراض عن ربط الفروع بأصولها ومعرفة مأخذها ، ليست جديدة علينا بل هي داء قديم في المغرب العربي ، وكذلك في الأندلس ، فالإمام المالكي عمر بن عبد البر الأندلسي المتوفى عام 493 هـ - مثلاً يصف في كتابه "جامع البيان وفضله" حالة التعليم في عصره ويوجه انتقاده للأسلوب المتبع في التدريس من حيث الابتعاد عن معرفة أصول القول والاقتصار على الأدلة المبتورة عن أصولها ، ثم يوجه نصيحته لطلبة العلم حاثاً إياهم على الرجوع إلى الأصول والعناية بها والاعتماد على النظر والبحث والاجتهاد ، والاطلاع على مختلف المذاهب والآراء والاستعانة بها"<sup>2</sup>.

كما يستشهد ابن باديس أيضاً بأقوال إمام آخر من أئمة الأندلس هو أبو بكر بن العربي الأندلسي المتوفى عام 543 هـ - من كتابه "العواصم

1. د . عمار طالبي، "ابن باديس حياته وأثره" ، ج 3 ، ص 209 - 2. د. بركات محمد مراد سيد، "ابن باديس" ، ص 203 ، مجلة العلوم الاجتماعية ، الكويت.

من القواصم" وينقل عنه حديثه عن جمود فقهاء عصره، ثم يعلق قائلاً :  
 "فهذا الإمام العظيم قد عاب عليهم نظرهم في الحوادث بغير علم  
 لأن ما عندهم من الفروع المقطوعة عن الأصول لا يسمى علماً، ولما لم تكن  
 عندهم الأصول تاهوا في الفروع المنتشرة، ومحال أن يضبط الفروع  
 من لم يعرف أصولها. وذكر ما أداهم إليه إهمال النظر من الانقطاع  
 عن أقوال مالك نفسه وأمثاله إلى أمثالهم من الفروعيين التائهين، الناظرين  
 بغير علم. فإذا كان الحال هكذا من تلك الأيام في تلك الديار وقد مضت  
 عليه قرون في هذه البلاد وغيرها، فإن قلعه عسير والرجوع بالتعليم  
 إلى التفقه في الكتاب والسنة وربط الفروع بالمأخذ والأدلة أعسر وأعسر"<sup>1</sup>.

فابن باديس - إذن - يرى أن التخلف الذي لحق بالفقه وبعلم الدين  
 عامة سببه غياب المنهج العلمي الذي أخذ به العلماء و الفقهاء، وقد أدى  
 هذا إلى تخبطهم في الفروع وكثرة اختلافهم فيما يتشعب عنها، ولا يمكن  
 تلافي ذلك الاختلاف إلا بالعودة إلى منابع الأولى، من القرآن والسنة  
 الصحيحة، ثم استخدام النظر والاستدلال اعتماداً على القياس والاستنباط  
 وإعمال الفكر والنظر في حدود الاجتهاد الذي كفله الدين للفقهاء  
 والعلماء، ولذلك نجده بحث أصول النظر والاستنباط.

### أصول استنباط الأحكام :

يعرض ابن باديس لأصول النظر والاستنباط - بعد أن شخّص الداء  
 الذي أصاب الفقه الإسلامي - واصفاً إياها ومستدلاً عليها بما كان عليه  
 أئمة السلف قديماً كالإمام مالك والشافعي وغيرهما داعياً إلى التدرج في  
 بيان هذه الأصول وشرحها، ثم الترقى بالطالب من خلال ربط هذه  
 الأصول بالفروع بكيفية متدرجة، غايتها تكوين ملكة النظر والاستنباط .

1. د. عمار طالبي : المرجع السابق، ج 4، ص 132.



وقد لخص منهجه الإصلاحي وحدده ثم وجهه لإدارة جامعة الزيتونة بعد أن ارتفعت فيها أصوات المنادين بالإصلاح و في بيان ذلك يقول : "أما الفقه فيجب أن يقتصر فيه على تقرير المسائل دون تشعبها، ثم يترقى بهم إلى ذكر بعض أدلتها، وعلى أصول الفقه مجردة ، ثم يترقى إلى تطبيقها على المسائل الفقهية لتحصل لهم من هذا ملكة النظر والاستدلال"<sup>1</sup>.

وابن باديس قد أصاب -هنا- الداء المتمثل في غياب المنهج والذي يحرم طالب العلم من تكوين ملكة النظر والاستدلال والتي هي الغاية من دراسة هذه العلوم الشرعية والزج به في متاهات الجزئيات والمعارف الفقهية التي تفقده القدرة على الحكم والاستنباط والتعليل والتفسير .

وقد رأى ابن باديس أنه ينبغي توضيح أصول هذه العلوم للطالب أولا ثم يترقى منها إلى تطبيقاتها دون توسع كبير أو تشعب لتكون لديه قدرة على النظر والاستدلال. ونصح كل من يتصدى للفتوى أو الإرشاد من العلماء أن يلتزم بهذا المنهج الذي يراه مناسبا لتدريس العلوم الإسلامية بقوله : "ينبغي لأهل العلم -أيضا- إذا أفتوا أو أرشدوا أن يذكروا أدلة القرآن والسنة لفتاويهم ومواعظهم ليقربوا المسلمين إلى أصل دينهم ويذيقوهم حلاوته ويعرفوهم منزلته وينيلوهم العلم والحكمة من قريب، ويكون لفتاويهم ومواعظهم رسوخ في القلب وأثر في النفس"<sup>2</sup>.

وقد التزم ابن باديس بهذا المنهج الذي أشار إليه في كل ما تعرض له من مسائل وقضايا فقهية ، فهو يبحث أولا عن الدليل في كتاب الله، فإن لم يجده بحث عنه ثانية في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وإذا لم يجد

1. د. عمار طالبي، "ابن باديس حياته وآثاره"، ج 4 ص 182 . ود. بركات : المرجع نفسه، ص 247

2. ابن باديس، "التفسير"، ص 159.

نصا قطعيا من كتاب الله أو ظنيا من السنة النبوية ، فإنه آيل ثالثا إلى الاجتهاد على ما هو بصدده إلى طريق الدليل النظري. وهو فيما اتفق عليه الجمهور: الإجماع أو القياس. فهو يؤمن بحتمية التطور في المجتمع ويرى أن مثل هذا يستلزم أحكاما جديدة تراعى فيها المصلحة العامة، وهي مفهومة كلما اقتضته حاجة الناس في أمر دنياهم ونظام معيشتهم وضبط شؤونهم وتقدم عمرانهم ومما تقره أصول الشريعة.

### العودة إلى الأصول وبناء الاجتهاد عليها :

إن هناك اعتراض أو سؤال يفرض نفسه هنا عند الحديث عن الالتزام المطلق بالنصوص الأصلية للشريعة وهو اعتبار البعض أن هذا الصنيع من قبيل التقليد الأعمى والجمود المضر بالتفكير والنظر. فما موقف ابن باديس من هذه القضية المثارة باعتباره يركز كثيرا على ضرورة العودة إلى النصوص الشرعية وأصول الاستنباط الأولى ؟

لقد كان هذا الاعتراض ماثلا في ذهن ابن باديس وهو يبحث على الاجتهاد بالعودة إلى الأصول الأولى، الكتاب والسنة، إذ أنه يعتبر الاجتهاد لا يتم إلا بالرجوع إليهما فمن يرجع إلى الكتاب والسنة من العلماء سيكون حتما في حاجة إلى استحضار أدوات الاجتهاد والسعي إلى التمكن منها تمكنا يتيح له التعامل مع النصوص لمعرفة الحكم والمقاصد الملحوظة للشارع الحكيم فيها وبالتالي سيكون ذلك دافعا له للبحث عن امتلاك هذه الوسائل ومن ثم يكون الرجوع إلى الكتاب والسنة هو سبيل الاجتهاد. ولذلك فإنه سرعان ما يرد على هذا الاعتراض الذي يثيره المقلدون وأعداء التجديد بالتأكيد على أن العودة إلى تلك الأصول هو الاجتهاد بعينه، لسبب بسيط هو أن المنهج التشريعي في القرآن الكريم يؤدي حتما إلى الاجتهاد لأنه جاء بالقواعد الأساسية والمبادئ العامة والأصول الكلية.



ويترك التطبيق للمجتمع دون أن يحدد أشكالاً أو يخوض في تفاصيل بل إن الاجتهاد هو سر خلود شريعة القرآن وبقائها على مر السنين والأحقاب.

وهذا الموقف والمسلك الذي سلكه ابن باديس وهذه النظرة الثاقبة الدقيقة التي تنظر إلى أبعد من النظرة السطحية، يتبين لنا الاختلاف الكبير بين ابن باديس المجدد وبين غيره من الفقهاء الجامدين. فهو يرى أن للدين أصولاً عامة، مرنة، طيعة، لا تصادم الطبع السليم والفترة السوية، والمسلم الحق هو الذي يترجم إلى دنياه طبيعة هذا الدين وأخلاقه وأحكامه.

ولذلك كثيراً ما نجد ابن باديس يحث على الاجتهاد بكل صوره، فهو يعتقد أن المجتهد - حتى ولو استند في اجتهاده إلى ما يفيد الظن من أخبار الآحاد أو النصوص الأخرى الظنية الدلالة - هو متبع للعلم وليس داخلاً في جملة المقلدين وذلك من ثلاث أوجه :

الأول : أن كل دليل ظني بمفرده يصير يقيناً إذا عرض على كليات الشرع ومقاصده، وشهدت له بالصواب، وهذا هو شأن المجتهدين في الأدلة الفردية.

الثاني : أن المجتهد يعتمد في الأخذ بالأدلة الظنية الدلالة لما له من العلم بالأدلة الشرعية الدالة على اعتبارها .

الثالث : أن تلك الأدلة بمفردها تفيد الظن القوي الذي يكون جزمًا ويسمى كما تقدم - علماً فما اتبع المجتهد غير العلم<sup>1</sup>.

المجالات التي يتجلى فيها اهتمام ابن باديس بالمقاصد :

إن اهتمام ابن باديس بالمقاصد يتجلى في عديد من النواحي يمكن أن نذكر منها ما يلي :

1. ابن باديس، "التفسير"، ص 159، ود. بركات محمد مراد سيد : "ابن باديس المجدد الديني"، ص 251.

الناحية الأولى إبراز الكليات : إن أولى النواحي التي يتجلى فيها اهتمام ابن باديس بالمقاصد الشرعية هو حرصه الشديد على إبراز الكليات الخمس التي اهتم بها السابقون من علماء الأصول، فسار على منوالهم وحذا حذوهم فاهتم بها أيما اهتمام ودعا إلى وجوب مراعاتها من جانبي الوجود والحفظ.

حفظ الدين : فحفظ الدين ويعني به دين الإسلام هو أمر مقدم على غيره وذلك لأنه يرى فيه المخرج والملجأ ومسلك النجاة للبشرية جمعاء لا للمسلم وحده فقط، ولأجل ذلك جعل حياته كلها فداء لنشر هذا الدين وإشاعة أركانه وتعاليمه بين الناس وفي الحياة، لذلك نبّجه يقول في النهاية كخلاصة لهذا الأمر " فلما عرفنا هذا وأكثر من هذا الإسلام وهو الدين الذي فطرنا الله عليه بفضلته علمنا أنه دين الإنسانية التي لا يباد لها ولا سعادة إلا به ، وأن خدمتها لا تكون إلا على أصوله، وأن إيصال النفع إليها لا يكون إلا من طريقه ، فعهدنا الله على أن نقف حياتنا على خدمته ونشر هدايته وخدمة كل ما هو سبيله ومن ناحيته "1.

حفظ النفس : وأما حفظ النفس فهو من الأصول القطعية ومن الكليات العامة التي جاءت الشرائع السماوية كلها بما يوجب حفظها ويضمن حمايتها و يمنع التعدي على النفوس البشرية، كما يقول الإمام "جاءت الشرائع السماوية كلها بإيجاب حفظها فكان حفظها أصلاً قطعياً و كلية عامة في الدين"2.

ولتحقيق هذه الكلية وجب القصاص العادل الذي نصت عليه آيات الكتاب الكريم ووجبت الرعاية الصحية والمحافظة على البدن بالوقاية والنظافة والتداوي وكثيراً ما كان يوصي المسلمين بوجوب النظافة والرعاية الصحية والمحافظة على البدن بمختلف الوسائل.

1. ابن باديس، "أثر الإمام"، ج 4: ص 111، ط وزارة الشؤون الدينية - 2. ابن باديس : "التفسير"، ص 116 وص 121.

وما أروع هذه الوصية الغالية التي يسديها إلى المسلم بقوله : "حافظ على صحتك فهي أساس سعادتك وشرط قيامك بالأعمال النافعة لنفسك وغيرك، تجنب العفونة فإنها مصدر جرائم الأمراض ومثار نفور وبغض لطلعتك ومجلبة سب لجنسك ولدينك الشريف البريء منك في مثل هذا الحال. نظف بدنك، نظف ثوبك تبعث الخفة و النشاط في نفسك وتنبل في عين غيرك وتجلبه على الاستئناس بمعاشرتك "وهكذا وعلى هذا المنهج القويم وبهذه الطريقة الحكيمة يمضي العلامة ابن باديس في الحديث عن كليات الدين الخمسة ويدعو إلى مراعاتها في جانبيها آنفي الذكر.

#### الناحية الثانية الحرية :

أما الناحية الثانية التي يتجلى فيها اهتمام الإمام بمقاصد الشريعة فهي اهتمامه بالحرية. فالحرية بما تكتسبه من مكانة في حياة الأمم والشعوب ولما لها من مكانة في نظر المفكرين والفلاسفة، كان اهتمام ابن باديس بها أمرا ملفتا للنظر وجديرا بالتنويه.

فقد أبرز مكانتها ونوه بقيمتها وحاجة البشرية إليها وبين أن الشريعة الإسلامية تعتبر الحرية هي الحياة وتدعو الناس إلى توفير أسبابها ومنع آفاتها لأنه كما للحياة أسبابها وآفاتها فإنه كذلك للحرية أسبابها وآفاتها، ولا تتحقق الحرية للناس إلا إذا تمسكوا بما لها من أسباب. وتلك سنة الله الماضية وذلك ما نزلت الشرائع السماوية به وما جاءت لتعلمه لبني آدم و"حق الإنسان في الحرية كحقه في الحياة، ومقدار ما عنده من حياة هو مقدار ما عنده من حرية"<sup>1</sup>.

1. ابن باديس، "آثار الإمام"، ج 5، ص 454 .



ولم يكتف ابن باديس ببيان قيمة الحرية ومكانتها واعتبارها والحياة سواء، وإنما أعلن صراحة "أن المعتدي عليه - الإنسان - في شيء من حريته كالمعتدي عليه في شيء من حياته... "ولا ينعم الإنسان بها إلا إذا تمسك بما لها من أسباب وتجنب وقاوم ما لها من آفات"<sup>1</sup>.

ثم أشار أيضا إلى أن الشرائع السماوية وإرسال الرسل وإنزال الكتب جار لتعلم أبناء آدم كيف يحيون أحرارا، وكيف يأخذون بأسباب الحياة والحرية، وكيف يعالجون آفاتهما، وكيف ينظمون تلك الحياة وتلك الحرية حتى لا يعدوا بعضهم على بعض، وكيف يستثمرون الحياة والحرية حتى إلى أقصى الحدود فيما ينفع ويفضي إلى تحقيق سعادة الدنيا وسعادة الآخرة.

ولا ريب كما يقرر ابن باديس أن أعظم الشرائع وأكملها في وضع وسن ما يحافظ على حياة الناس وحريتهم هي الشريعة الإسلامية فقد كانت الشريعة المحمدية بما سنت من أصول وما وضعت من نظم، وما فرضت من أحكام أعظم الشرائع وأكمل الشرائع في المحافظة على حياة الناس وحريتهم<sup>2</sup>.

ومع اهتمام ابن باديس الشديد بالمقاصد الكلية ومقصد الحرية، اهتم أيضا بإبراز المقاصد الجزئية أو التفصيلية إذ أنه أدرك وبين أن لكل حكم جزئي ولكل تشريع تفصيلي مقصد يهدف الشارع الحكيم إلى تحقيقه، إن في العبادات وإن في المعاملات ففي ربط الصلاة بالوقت مقصد هو تعليم الأمة لتربط الأمور بالأوقات وتجعل لكل عمل وقته، فللنوم وقته وللأكل وقته وللراحة وقتها، ولكل شيء وقته، وبذلك يضبط الإنسان أمر حياته وتنظم له أعماله، ويسهل عليه القيام بالكثير من الأعمال<sup>3</sup>.

1. ابن باديس، المرجع السابق نفسه، ص 454 - 2. ابن باديس، المرجع نفسه، ص 454 -

3. ابن باديس، "التفسير"، ص 177.

فإذا احترم الإنسان هذه السنة وراعى هذا المقصد استقام حاله ووصل إلى تحقيق أهدافه و غايته وإذا أخل بهذا المقصد وأهمله خاب سعيه واضطرب نظامه وأصابه الكسل والضجر وابتعد عن الإتيان واستقر على الفوضى والتشويش.

### مراعاة الأصول والاهتمام بها في الدراسات الفقهية :

لقد أجمع ابن باديس النظر في الطرق المتبعة لتدريس مادة الفقه الإسلامي، وفي الوسائل الشائعة لتطبيق الأحكام في الحياة العامة، فوجد فيها انحرافا خطيرا منشؤه الاعتماد بشكل أساسي على الفروع المقطوعة عن أصولها والإعراض عن الاستدلال والتعليل والقياس<sup>1</sup> والنظر وتبين له أن هذا المسلك الذي سلكه المسلمون مخالف لمنهج القرآن ومسلكيته في وضع أصول الأحكام وبيان الحكم والعلل والفوائد والمصالح العامة والخاصة فالقرآن كما يقول " بين أصول الأحكام وأمهاات مسائل الحلال والحرام ووجوه النظر والاعتبار مع بيان حكم الأحكام وفوائدها في الصالح الخاص والعام"<sup>2</sup>.

فلما خالف المسلمون هذا الطريق القرآني وهجروا أسلوبه هذا واقتصروا على قراءة الفروع الفقهية مجردة بلا نظر، جافة بلا حكمة، محجبة وراء أسوار من الألفاظ المختصرة، تفنى الأعمار قبل الوصول إليها"<sup>3</sup> و إدراكها و فهم غايتها. آل الأمر بالعلم الشرعي في عصرنا إلى حالة مزرية وإلى هجر للقرآن والسنة والابتعاد عن طريقه و الإعراض عن ربط الفروع بأصولها ومعرفة مأخذها وهي حالة ليست جديدة علينا. "بل هي داء قديم في المغرب العربي وكذلك في الأندلس"<sup>4</sup>.

ويرى ابن باديس أن الخروج من هذا الطريق الذي وقع فيه الفقه الإسلامي من قطع الفروع عن الأصول وإهمال علم الأصول ومقاصد

1. عبد الرحمن سلواني، "عبد الحميد بن باديس، ص 92 - 2. ابن باديس، "التفسير"، ص 282

3. ابن باديس، المرجع نفسه، ص 282 - 4. ابن باديس، "أثار الإمام"، ج، ص 42.

الإسلام - والذي مضت عليه قرون "يعسر قلعه والتخلص منه والرجوع بالتعليم إلى التفقه في الكتاب والسنة وربط الفروع بالآخذ والأدلة"<sup>1</sup>.

### إعادة الاعتبار للأصول وربطها بالمقاصد :

إن هذا الوضع الذي آلت إليه حال العلوم الإسلامية والفقه الإسلامي الذي أشار إليه الإمام لا يمنع من محاولة إعادة الاعتبار لتلك الأصول وربطها بالمقاصد للخروج من الأزمة التي ألت بالفكر الإسلامي. والسبيل إلى تحقيق ذلك في تقديره يمر عبر مرحلتين هما :

المرحلة الأولى : اعتبار الدين الإسلامي ديناً له أصول مرنة طيعة لا تصادم الطبع السليم أو الفطرة البشرية .

المرحلة الثانية : الاعتداد بالاجتهاد حتى ولو استند المجتهد في اجتهاده إلى ما يفيد الظن من أخبار الآحاد أو النصوص الأخرى الظنية الدلالة. ويعتبر هذا الصنيع هو إتباع للعلم وذلك لاعتبارات ثلاثة :

الاعتبار الأول : أن كل دليل يكون ظنياً، بمفرده يصير يقيناً إذا عرض على كليات الشروع ومقاصده ، وشهدت له بالصواب وهذا هو شأن المجتهدين في الأدلة الفردية .

الاعتبار الثاني : أن المجتهد يعتمد في الأخذ بالأدلة الظنية الدلالة لما له من العلم بالأدلة الشرعية الدالة على اعتبارها .

الاعتبار الثالث : أن تلك الأدلة بمفردها يفيد الظن القوي الذي يكون جزءاً ويسمى كما تقدم . فما اتبع المجتهد غير العلم"<sup>2</sup>.

بهذه النظرة الفاحصة الثاقبة، ووفق هذه الاعتبارات نظر بن باديس إلى مقاصد الشريعة ودعا إلى مراعاتها والاهتمام بها في حياة المسلمين،

1. ابن باديس، المرجع نفسه، ص 81 - 2. عبد الرحمن سلوادي، المرجع السابق، ص 99.



وفي مناهج الدراسة، وفي المؤسسات التعليمية. وبذلك يكون قد سلك مسلك كبار الفقهاء السابقين الذين اهتموا بالمقاصد من علماء المدرسة المالكية بالمغرب الإسلامي كالشاطبي وابن عاشور. إلا أن الذي نأسف له شديد الأسف أن تراثه لم يدون كله من قبل تلامذته الذين لم يكونوا يدركون قيمة ما كان يلقيه عليهم من الدروس، إذ لو دونت كتبه ودروسه في التفسير والحديث والسيرة والفقه لكان بين يدي الباحثين والدارسين من المصادر ما يمكنهم من استكناه معالم المنهج الباديي الفريد والتميز في علوم شرعية أصيلة كالفقه والحديث والتفسير والعقيدة... وإنه لخسارة جسيمة أن يضيع تراث واحد من الأئمة الأعلام الكبار في الجزائر وتضيع فرصة كبيرة على الباحثين وطلاب العلم والمعرفة للاطلاع عليها والاستفادة منها.

ولعلي أكون بهذه المحاولة المتواضعة قد أسهمت بما تيسر من الجهل والقدرة العلمية المتواضعة في الكشف عن جانب من جوانب العظمة في فكر أحد المصلحين الكبار في القرن العشرين في العالم الإسلامي. وما ذلك إلا بفضل من الله وتوفيقه أسأله تعالى المغفرة والثواب.

## المراجع

1. الشيخ عبد الحميد بن باديس : "مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ط وزارة الشؤون الدينية والأوقاف الجزائر .
2. الشيخ عبد الحميد بن باديس : "آثاره"، ج 4، وزارة الشؤون الدينية، 1986 الجزائر.
3. الشيخ عبد الحميد بن باديس : "آثاره" . ج : 5 وزارة الشؤون الدينية.
4. د عمار طالبي، "الشيخ عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره" .
5. الشيخ عبد الحميد بن باديس، "التفسير" .
6. د. عبد القادر فضيل ومحمد الصالح رمضان، "إمام الجزائر"، دار الأمة، الجزائر، ط. 1. 1998.
7. عبد الرحمان سلوادي، "عبد الحميد بن باديس مفسر"، المؤسسة الوطنية للكتاب 1988 .
8. د فلوسي مسعود، "البعد المقاصدي في تفسير ابن باديس"، مجلة "الموافقات" كلية العلوم الإسلامية، العدد 6.
9. د. بركات محمد مراد سيد، "ابن باديس المجدد الديني والمصلح الاجتماعي"، مجلة العلوم الاجتماعية، جامعة الكويت العدد 30. 1996م.
10. مجلة "التذكير" تصدر عن مسجد الجامعة العدد 10 السنة 1990. الجزائر.